دراسات الأدب المعاصر، السنة السابعة، شتاء ۱۳۹۴، العدد الثامن والعشرون: صص۴۹- ۶۶

الدعوة الإصلاحية فی شعر معروف الرصافی

علی نظری*
یونس ولیئی**
سیدمرتضی طباطبایی***

تاریخ الوصول: ۹۴/۴/۱۷
تاریخ القبول: ۹۴/۷/۲۲

الملخص

فی نهایات القرن التاسع عشر وبدایات القرن العشرین، کان الواقع الاجتماعی والسیاسی العراقی لا یحسد علیه أبداً فالبلاد تعانی البؤس والجهل وفقد الأمن وفساد الحکام العثمانیین معاناة شاملة. فیعتبر الشاعر العربی المعاصر *معروف عبدالغنی الرصافی*(۱۸۷۶-۱۹۴۵م) وافیاً بدور بارز نشیط فی الساحة الأدبیة والثقافیة وجاء شعره ملتزماً دینیاً واجتماعیاً وسیاسیاً، فکثیر من أجمل قصائده تتحدّث عن المشاکل الإجتماعیة کالبؤس وتفشّی الجهل والخرافة فی قناع الدین وعدم الحریّة للجماهیر وللمرأة بشکل خاص. وهو ملتزم اجتماعیاً لتقبیح الجهل والبؤس والتعسف علی المرأة فی شعره، ویدعو دعوة واسعة تشمل الناس کلّهم إلی السلم والمؤاخاة وإلی نبذ الأضغان والتخاذل وینهض نهضة حرّ أبی.

الکلمات الدلیلیة: الشعر العربی المعاصر، حریة النساء، الحریة السیاسیة، الجهاد، کسب العلم.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

* أستاذ مشارک بقسم اللغة العربیة وآدابها، جامعة لرستان.
** طالب الدکتوراه بقسم اللغة العربیة وآدابها، جامعة لرستان. yunusvaliei@yahoo.com
*** طالب الدکتوراه بقسم اللغة العربیة وآدابها، جامعة لرستان.
الکاتب المسؤول: یونس ولیئی

المقدمة

اتسعت دائرة البحث فی غاية الأدب، وكثر الكاتبون والقائلون بوجوب نهوض الأدب بمهمة الإصلاح، ومحاولة النهوض بالأمة وحمّلوا الأدباء تبعة التخلف الاجتماعی الملحوظ. وعبر النقاد عن آمالهم فی أن يتجه الأدباء اتجاها اصلاحيا يجاری نهضة الأمة ويتابع خطواتها فی سبيل التقدّم، بل يرسم لها سبيل التقدم(طبانة، ١٩٨٥: ١٣٧).

الأديب فی العصر الحاضر كان صورة ناطقة لعصره وأدبه كمرآة تعكس الحوادث السياسية والثورات الاجتماعية. والأدب فی عصرنا هذا وثيق الصلة بالحياة اليومية والقضايا الوطنية، ولقد أخذ الأدب العربی الحديث يعبّر عن وعی الأمة العربية، ويصبح وجها من وجوه الإتصال فإذا ما طالب الشعب بالحرية وقام مناضلاً فی وجه المستعمر، كان الأدب أول عدة من عدد النضال يمكننا القول إن أبرز نزعة ميزت الأدب الحديث هو نزعته القومية الوطنية، والنزعة الثانية هی نزعنه الإجتماعية الإصلاحية. فقد رافق استيقاظ العرب من سباتهم حركات اجتماعية تبغی الإصلاح الاجتماعی(الركابی، ٢٠٠١: ٣٠٤).

والشاعر العراقی *معروف الرصافی* هو من أوائل الشعراء الذين اهتموا بهموم الشعب وطموحاتهم وتحدثوا عن القضايا الوطنية والاجتماعية والسياسية، لأن *الرصافی* نشب فی بيئة ملیء بالفقر والحرمان، وأحوال هذه البيئة دعته إلی الاهتمام بقضايا المجتمع ومشاركة آلامه. هو فی كثير من قصائده أظهر مشاكل المجتمع وعالجها وسعی أن يجد طريقة لحلّها، الرصافی فی شعره داعٍ يدعو الناس إلی إصلاح المجتمع ويريهم طرق الاصلاح. كان المجتمع العراقی فی زمن الرصافی يتألم من الفقر، والجهل، والاستعمار، والخضوع أمام الأعداء، وتقييد المرأة، و... لهذا هو يشجع الناس علی مكافحة هذه المشاكل.

يرتبط اسم *الرصافی* بالأحداث السياسية فی تاريخ العراق فی العقود الأولی من القرن العشرين. ويوجد فی شعره خط مستمر من التطور فی الأفكار والعلاقات السياسية أكثر مما يوجد لدی *الزهاوی*. طبيعة *الرصافی* كانت أبية فلم يستطع التسوية عموماً فی المواقف التی لا تليق ولذلک عرف فی حياته شيئا من الفقر والنفی والبطالة. وكانت تقلباته السياسية بين الحين والحين تحدث غالباً بسبب طموحه إلی المناصب، وهو أمر مألوف لدی تقليدی لدی الشاعر(الجيوسی، ١٩٩٦: ٢٥٠).

خلفية البحث

حتی الآن دراسات عديدة أجريت حول *الرصافی* وشعره؛ منها «معروف الرصافی ونزعته الاجتماعية إلی المرأة والفقر»(۱۳۹۰ش) *لأبوالفضل رضايی* و*عبد الله شفيعی*، و«معروف الرصافی محلل اجتماعی للفقر والحرمان»(۱۳۸۹ش) *لإسماعيل نادری*، و«الالتزام السياسی فی شعر معروف الرصافی»(۱۳۸۴ش) *لمنصورة زركوب*، و«الالتزام فی شعر محمود عبدالغنی الرصافی»(۱۳۹۲ش) *لمحمود شكيب أنصاری*، لكن مقالتنا هذه تختلف عنها لأن هذه الدراسات لم تعالج الدعوات الإصلاحية فی شعر *الرصافی* خلافا لمقالتنا هذه التی عالجت هذا الموضوع معالجة شاملة، بل تطرقت إلی بعض موضوعات كالفقر والمرأة فقط.

الدعوة الإصلاحية فی شعر معروف الرصافی

الرصافی هو شاعر كان كثير الإهتمام بالشؤن السياسية والإجتماعية، وكثيراً ما يتحدث فی شعره عن هذه القضايا باحثاً عن طريق لحلّ مشاكل المجتمع. الشعر لدی *الرصافی* له مهمة خاصة وهی إيقاظ الناس عن غفلتهم وإخراجهم من الجمود إلی الحركة والعمل باثارة عواطفهم، لهذا نری أن الشاعر فی شعره يدعو الناس إلی ما يغيّر أوضاع المجتمع وأحوال الناس يحلّ المشاكل، وهو:

أ.كسب العلم

يری *الرصافی* أن السبب الرئيسی فی تخلفّ الشرقيين عامة والعرب خاصة هو انتشار الجهل لأنه عمی يقضی علی البصيرة ويخنق الطموح، أما العلم فهو نور يهدی وفكر يبدع. وينهض *الرصافی* نهضة حرّ أبی، فيفضح الحال، وينـدد بالجهل. فی رأيه الجهل موت الرصافی يريد الحياة لأمته فيشجع علی طلب العلم. والعلم عنده يضمن الحياة الغريزة، ويرفع الإنسان إلی مستوی الإنسانية ويفتح له أسرار الوجود، ويجعل طاقات الطبيعة بين يديه، فيخترع وينجز ويكشف المجهول، وبالعلم تزدهر الأوطان ويرتفع للحضارة بنيان. *الرصافی* قد سيطر علی نفسه هاجس العلم سيطرة كاملة، فهو لا يدع سانحة من سوانح الكلام، وهو يری فی الدعوة إليه إخلاصا للوطن وخلاصا للشعب(الفاخوری،۱۹۸۶: ۴۸۹).

العلم يبنى وينهض ويسير بالمجتمع نحو درجات الكمال ويرقى بالشعوب؛ فهو المصباح المنير الذى يبدد الظلام ويقود الناس إلى التحرر من نير العبودية، بالعلم تشاد الحضارات وتبنى الأمجاد. وكذلك *الرصافى* يرى أن العلم ليس هو سبب تقدّم الحضارات الحالية فقط، بل هو سبب تقدّم الحضارات السابقة أيضاً، إلى العلم على أنه هو سبب نهضة الأمم وليس سواه، والعلم هنا بمعنى العلوم المعاصرة التى نمت فى الغرب وحقّقت له نهضته. العلم فى رأى *الرصافى* هو سبب الهدى والرشد والعلو، وكسب العلم وتحصيله سبيل النجاة والحياة السعيدة. بالعلم يعتز الذليل ويقوى الضعيف ويغنى الفقير ويسرّ الحزين، الشاعر يشبه من لا يبنون المدارس ولا يطلبون العلم ولايثابرون على كسبه بالميت ويشبه ثيابهم بالكفن وبيوتهم بالقبور:

كفى بالعلم فى الظلمات نورا ... يبين فى الحياة لنا الأمورا
فكم وجد الذليل به اعتزازا ... وكم لبس الحزين به سرورا
تزيد به القول هدى ورشدا ... وتستعلى النفوس به شعورا
إذا ما عقّ موطنهم أناس ... ولم يبنوا به للعلم دورا
فإن ثيابهم أكفان موتى ... وليس بيوتهم إلا قبورا

(الرصافى،٢٠٠٦: ٩٢)

الرصافى يأمر بتعميم التعليم والتثقيف ويحكم ببناء المدارس وفتحها للعامة لأن التعليم آنذاك كان يختص بالموسرين والأثرياء والفقراء كانوا محرومين من التعليم.

العلم عند *الرصافى* هو وسيلة التقدم والترقى والإزدهار وبه تكسب المعالى وتحلّ المشاكل والصعاب. وهو يدعو إلى اقتران العلم بالعمل ويقول لا توجهوا كل اهتمامكم إلى القول النظرى بل وجهوا عنايتكم إلى الشؤون العملية، كالعلوم التطبيقية التى تفيد فى ترقية الزراعة والصناعة والتجارة وما إليها، لأن العلم إذ لا يقترن بالعمل لاينتفع:

أبنوا المدارس واستقصوا بها الأملا ... حتى نطاول فى بنيانها زحلا
لا تجعلوا العلم فيها كل غايتكم ... بل علّموا النشء علما ينتج العملا

(المصدر نفسه: ١٣٦)

العلم يحفظ الانسان إمام الجهالة والأوهام ويصونه فى المشاكل والصعوبات، بحيث إن *الرصافى* شبه معهد العلم بالحصن الأبلق - هو حصن معروف *للسموأل بن عاديا اليهودى*

الشاعر الجاهلی بأرض تیماء من بلاد العرب، وهو حصن کان یعزّ علی من رامه ویطول- وفضّله علی ذلک الحصن بالقول إن معهد العلم أمنع وأحرز من الحصن الأبلق.

العلم یری الانسان سبیل النجاح والسعادة ویقیه من الفقر والذل ویلبسه العزة والکرامة. وبالعلم تتحقق الآمال وتنال الأغراض والأهداف وإن ظنّها الناس مستحیلة وبعیدة:

معهد العلم وهو حرز یفوق الـ ـأبلق الفرد منعة وحرازه
حبذا العلم یکسب المرء عزّا ویقیه فی عیشه إعوازه افتقاره
وإذا العلم فاه یوما بوعد ذهب الیأس آملا إنجازه

(المصدر نفسه: ۱۴۰)

الرصافی یحثّ الناس علی کسب العلم والمثابرة علی طلبه وعلی بذل المال فی سبیله، هو یفضّل العلم علی المال لأن المال ینفد ویفنی ولا یخلد لصاحبه خلاف العلم الذی یکون سرمدا.

العلم ینجی الانسان فی المهالک والمعارک ویریه سبیل النجاة، وسلاح العلم یغنی الانسان عن سائر الاسلحة لأنه أقوی وأنفع. الشاعر شبه الشاعر العلم بالنور ثمّ انصرف وعدل عن رأیه وفضّل العلم علی النور، لأن النور یظهر الطریق وإن کانت صحیحة أو غیرها وینفع من عنده قدرة البصیرة فقط لکن العلم یظهر طریق النجاة والسعادة، وهدایته وإرشاده عام ویهدی ویرشد من یجتهز به وإن کان أعمی أو بصیرا:

وإن للعلم فی العلی فلکا کل المعالی تدور فی قطبه
وابذل له ما ملکت من نشب فالعلم أبقی للمرء من نشبه
لا تتکل بعده علی نسب فالعلم یغنی النسیب عن نسبه
من تخذ العلم عدّة لوغی أغناه عن درعه وعن یلبه
العلم کالنور بل أفضّله ما أفقر النور أن یشبّه به

(المصدر نفسه: ۱۴۲)

ب.حریة النساء

کانت تعیش المرأة العراقیة فی أوائل القرن العشرین فی حالة الیأس والجهل والحبس. فی بدایة هذا القرن کان ینادی البعض بحریة المرأة *کقاسم أمین*(یوسف، ۱۹۶۰: ۲۵۲)؛

ومارس الرجل الشرقی تسلطه وسطوته علی المرأة التی حکم علیها أن تعیش تحت نیّر العبودیة عبر آلاف السنین، ومع بدایة القرن العشرین ظهرت دعوات تطالب بتحریر المرأة. ولعل *الرصافی* هو أول شاعر عربی خصص کثیراً من شعره بالمرأة مما کان له أثره فی الحیاة الإجتماعیة وفی بث الوعی وکشف الحجب بصراحة متناهیة ومن حقه أن یتوج فی العشرینات علی أنه شاعر المرأة وناصرها وحامل لواء تحررها(العبطة، ١٩٩٢: ٥٧).

و*معروف الرصافی* کان من الشعراء الذین وقفوا إلی جانب المرأة ودعوا إلی تحریرها، ولعب بقصائده وأفکاره دوراً متمیزاً ومنفرداً فی دفاعه عن المرأة فی مجتمع ذکوری وذهنیة مطالبا برفع الحیف والظلم الواقع علیها. هو جعل بابا من أبواب دیوانه حول المرأة وسمّاه «النسائیات» وتناول فیه عدة قصائد مدافعاً عن المرأة وحقوقها فی الأسرة والمجتمع. هو فی هذا الباب یتحدث عن المرأة الشرقیة عامة والعربیة خاصة عن موقعها فی المجتمع وعن اضطهادها وعما یجب أن تتخلص منها من العادات الموروثة والتقالید القدیمة، وعما یجب أن یتوفر للمرأة العربیة من الاحترام والمکانة المرموقة والشأن و... یطالب *الرصافی* فی شعره للمرأة:

عمل المرأة فی المجتمع

ینظر إلی المرأة فی المجتمع العربی علی أنها إنسانة ناقصة عقل والمراد بهذه النظرة الاحتقار والتقلیل من شأن المرأة، وحرمانها من الإسهام فی النشاطات الاجتماعیة؛ وینظر إلیها بوصفها إنساناً ناقصاً لا یستطیع العمل فی المجتمع، و*الرصافی* یشکو هذه الحالة ویدعو المرأة إلی النشاط والعمل فی المجتمع وعدم انفصاله عن الجمع، ویقول:

وإنی لأشکو عادة فی بلادنا رمی الدهر منها هضبة المجد بالصدع
وذلک أنا لا تزال نساؤنا تعیش بجهل وانفصال عن الجمع

(المصدر نفسه: ۴۶۵)

الشاعر یقول إن المرأة العربیة ضیّع حقها واستصغر شأنها ومقامها، وألزمها العرب الحبس والثواء فی البیت، وهی عندهم کمتعة وإن کان لا یباع ولا یشتری، لیس لها اختیار وانتخاب ولا تستطیع أن تشارک فی الأمور ومنعت من الشؤون الاجتماعیة، حیث لا تسطتیع أن تؤدی الدور الذی یختص بها بل الرجل یؤدی دورها، مثلاً بعد دخول الفن

إلی العراق فی عشرینات القرن العشرین لا یسمح للمرأة بالتمثیل وممارسة العمل الفنی، وفی رأی العرب لیس ممارسة الرجل دور المرأة بعار بل هذا العمل أفضل من أن تحضر المرأة فی المسرح ومن أن تؤدی دورها بنفسها:

لقد غمطوا حقّ النساء فشدّدوا علیهن فی حبس وطول ثواء
قد انتبذوا عنهنّ فی العیش جانبا فما هن فی أمر من الخلطاء
فما هنّ إلا متعة من متاعهم وإن صنّ عن بیع لهم وشراء
وما العار أن تبدو الفتاة بمسرح تمثل حالی عزة وإباء

(المصدر نفسه: ۴۶۳)

رفع الحجاب

الرصافی فی شعره یدعو المرأة إلی رفع الحجاب لأنه یری فی الحجاب عادة ولیس دینا، والحجاب عنده رمز لتسلط المجتمع الذکوری، وهو وسیلة تجعل المرأة أداة فی ید الذکر. والدعوة إلی رفع الحجاب والسفور دعوة للخروج من العادات ودعوة لرفض تسلط الذکر علی الأنثی ولیست دعوة إلی الإنحلال والفسق وتقلید الغرب؛ *الرصافی* یدعو إلی تحریر المرأة من الفکر الذی یحرمها الحیاة ومن القیود التی تمنعها أن تکون حرة ومختارة. وهو لا یقصد برفع الحجاب محاربة العفاف والشرف وکفاحهما بل یدعو إلیهما، هو یری أن یکون الحجاب فی العلم، والحیاء فی الأدب فیحارب السلطة الذکوریة بردّ فعل رمزی فی المقابل وهی الدعوة لخلع الحجاب الذی لا یعنی غطاء الرأس فقط بل یعنی الجهل وعوائق التقدّم:

ترکوا النساء بحالة یرثی لها وقضوا علیها بالحجاب تعصبا
شرف المليحة أن تکون أدیبة وحجابها فی الناس أن تتهذّبا
والوجه إن کان الحیاء نقابه أغنی الفتاة الحی أن تتنقّبا

(المصدر نفسه: ۴۶۸)

مع أن *الرصافی* ینقد الرجال المسلمین المعاصرین له لکنه لا یرفض المبادئ والعقائد الإسلامیة أبدا؛ بل یعتقد آن الرجال المسلمین قد ذهبوا فی الطریق الخطأ(مریدن، ۱۹۸۱: ۷۸) ویقول حول هذا الأمر:

وأكبر ما أشكو من القوم أنهم يعدّون تشديد الحجاب من الشرع

(الرصافی، ۲۰۰۶ م: ۴۶۳)

و يقول أيضا:

نَحنُ السُّفُوريين أعلَمُ بالّذی شَرَعَ النَّبیُ مّحّمدٌ مِن دینِ

أيَكُونُ ما شَرَعَ النَّبیُ مُحمَّدٌ شَيئاً يُخالِفُ شَرعَةَ التّمدِينِ؟

حتّی رِجالُ الصّينِ تَحتَرِمُ النّساء أفنحنُ نَنقُصُ عن رجالِ الصِّينِ؟

كَلّا ولكن عادةٌ هَمَجيّةٌ جَعَلَتْكُم حَرباً لِكُلّ حَسينِ

(المصدر نفسه: ۶۲۰)

كسب العلم

الشاعر *معروف الرصافی* يدعو إلى تحرير المرأة من قيود الجهل والأمية والتخلف، ومما يمنعها من التعليم والتثقيف معتبرا تعليم المرأة هو مفتاح تقدم وتطور المجتمع. فی رأی العرب العلم لا يناسب الفتيات العفيفات وأن الجاهلات المحبوسات فی دُورهن أعفّ نفساً، وخضوع المرأة لهذا الخطاب معناه جلوسها فی البيت:

وقالوا الجاهلات أعفّ نفساً عن الفحشا من المتعلّماتِ

نری جهل الفتاة لها عفافاً كأن الجهل حصن للفتاة

(المصدر نفسه: ۴۷۲)

الحرية فی الزواج

المرأة فی المجتمع العربی ليس لها اختيار حتی فی أمر الزواج وهی مرغمة فيه، وتساق إلى بيت زوجها وإن كان زوجها رجلا كبير السن بسبب المال الذی يدفعها إلی أهلها، أو بعبارة أخری يبيع الآباء بناتهم لأجل المال.

لكن *الرصافی* فی شعره يطالب حرية المرأة فی أمر الزواج وأن تكون مختارة فيه، ويدعو المرأة إلى رفض الزواج إذا كرهته وإن سخط أبوه أو وليه، لأن فی رأيه الزواج مبنی على الحب والغرام ولا على الإكراه والارغام:

ظلموک أيتها الفتاة بجهلهم إذ أكرهوک علی الزواج بأشيبا

طعموا بوفر المـال منـه فـأخجلوا بفضـول هاتيـک المطـامع أشـعبا
فإذا رفضـت فمـا عليـک برفضـه عـــار وإن هـــاج الـــولی وأغضـــبا
إن الكريمـــة فـــی الـــزواج لحـــرّة والحـــر يـــأبی أن يعـــيش مذبـــذبا
(المصدر نفسه: ۴۶۷)

المساواة بين المرأة والرجل

للرصافی أشعار كثيرة حول المرأة كأكثر الشعراء المعاصرين ولكنه يمتـاز عـن اولئـک الشعراء بدنه لاحظ بعينه الفاحصة، وذهنه الذكی وغيرته على أبنـاء وطنـه وقومـه، لاحـظ الحالة الإجتماعية المنحطة للمرأة العراقيّة والعربية وجهلها وحجابها ونظـرة الرجـال إليهـا فشنها حربا شعواء لا هوادة فيها وهدنـة علـى الجامـدين وعلـى رجـال التربيـة والتعلـيم؛ مطالبا بانصافها ومساواتها التامة مع الرجل لتتم سعادة المجتمع(رضايی، ۱۳۹۰: ۱۲۹).

المرأة تعيش ذليلة خاضعة، وهی كأداة فی يد الرجل يلعب معها كما يريد وهی عنـده كمتاع يستطيع بيعها واشتراءها كأموال أخرى. والمرأة فی المجتمـع العربـی لا تسـطتيع الدفاع عن نفسها وأخذ حقوقها وهی محكومة دائما، ويسلب الرجـال حقوقهـا ويحبسـونها فی البيوت ويمنعونها من الخروج ويظلمونها ويعاملون معها كما يشـاؤون وينظـرون إليهـا نظرة الاحتقار والتقليل قائلين إن الدين يفضّل الذكر على الأنثی:

ما أهـون الأنثـی علـی ذكراننـا فلقـد شـجانی ذلّهـا وخضـوعها
ضعفت فحجتها البكاء لخصمها وسلاحها عنـد الـدفاع دموعهـا
هی متعة المسـتمتعين وليتهـا كانـت لزامـا لا يجـوز مبيعهـا
(الرصافی، ۲۰۰۶: ۴۷۸)

وله أيضاً:

أ أمَّ المـــؤمنين إليـــک نشـــكو مصـــيبتنا بجهـــل المؤمنـــاتِ
تخـــذنا بعـــدک العـــادات دينـــاً فأشـــقی المســـلمون المســـلماتِ
وقـــالوا شـــرعة الإســـلام تقضـــی بتفضـــيل الـــذين علـــی اللـــواتی
(المصدر نفسه: ۴۷۲)

كسب المجد

الرصافی فی شعره یوجه نصائح کثیرة إلی أبناء مجتمعه، النصائح التی تنبع من تجربة عمیقة فی فهم الحیاة، وإحدی هذه النصائح هی کسب المجد. هو فی شعره یتذکر أن الإنسان مهما طال عمره لابد أن یقضی نحبه ذات یوم، وما یبقی دائما ولا یفنی هو المجد والشرف، فلذا یطلب من أبناء مجتمعه أن یسعوا ویجتهدوا لکسب المجد معتبرا إن المجد الحقیقی هو ما یکتسبه الإنسان بنفسه ولیس ما ورثه من آبائه:

تیقّظ فما أنت بالخالد ولا حادث الدهر بالراقد
فخلّد بسعیک مجدا یدوم دوام النجوم بلا جاحد
وما الحمق إلا هو الاتکال علی شرف جاء من والد

(المصدر نفسه: ٢٢٤)

الشاعر یحثّ الناس علی العمل الجادّ ویحذرهم من الفتور معلناً إن ما یکتسبه الإنسان من المجد والعلاء دون السعی والإجتهاد یسهل فقدانه وزواله:

لیس للمرء أن یعیش بلا کدّ وإن کان من عظام الرجال
کلّ مجد یبنی علی غیر سعی فهو مجد مهدد بالزوال

(المصدر نفسه: ٢٥٠)

الرصافی یرفض التثاقل والتکاسل ویدعو إلی الحرکة والنشاط قائلا علی الإنسان أن لا یقنع بالقلیل، ولا یکتف بالضئیل بل علیه أن یروم المعالی والأهداف الکبیرة، ویعتقد أن اکتساب المعالی وتحقیق الأهداف لا یؤخذان بالقنوط والتثاقل بل یستدعیان المساعی والتضحیات فی بعض الأحیان. فی رأیه سبیل المجد صعب ووعر لا یجتازه إلا المخاطر فی طلابه:

سر فی حیاتک سیر ولم الزمان ولا تحابه
وإذا حللت بموطن فجعل محلک فی هضابه
واختر لنفسک منزلا تهفو النجوم علی قیابه
ورم العلاء مخاطرا فیما تحاول من لبابه
والمجد لیس یناله إلا المخاطر فی طلابه

(المصدر نفسه: ١١٧)

التعاون والاتحاد

دعوة *الرصافی* إلی الإتحاد هی دعوة واسعة تشمل الناس کلهم ولا تفرق بین أحد منهم، وهو یدعو الناس إلی السلم والمحبة والمؤاخاة وإلی نبذ الأحقاد والأضغان والتخاذل. *الرصافی* یرفض اختلاف أصحاب الأدیان، ولا یمیّز بین المسلم وغیر المسلم فی مختلف الأدیان، وبین السنی والشیعی فی دین الإسلام. ویعتقد أن الذین یعیشون فی بلد یجب علیهم أن یجتهدون لرقی بلدهم ویعملون لإزدهاره و... مهما اختلفت الأدیان. ویقول إن الذین یعیشون فی بلد واحد ویتکلمون بلسان واحد ویؤمنون بالله لا دلیل لاختلافهم ولا مانع من أخوتهم، معتقدا أن کلّ الأدیان قد جاءت لتسعد الإنسان، وکما نعلم سعادة الإنسان فی رهن سعادة وطنه وسعادة الوطن لا تتوفر إلا بإتحاد الناس وتعاونهم:

أما آن أن تنسی من القوم أضغان ... فیبنی علی أسّ المؤاخاة بنیان
أما آن أن یرمی التخاذل جانبا ... فتکسب عزا بالتناصر أوطان
علام التعادی لاختلاف دیانة ... وإن التعادی فی الدیانة عدوان
وما ضرّ لوکان التعاون دیننا ... فتعمر بلدان وتأمن قطّان
إذا جمعتنا وحدة وطنیة ... فماذا أن تعدد أدیان
إذا القوم عمتهم أمور ثلاثة ... لسان وأوطان وبالله إیمان
فأیّ اعتقاد مانع من أخوة ... بها قال إنجیل کما قال قرآن
کتابان لم ینزّلهما الله ربنا ... علی رسله إلا لیسعد إنسان

(المصدر نفسه: ۱۸۷)

الرصافی یدعو الناس إلی التعاون والإتحاد قائلا إن الناس کلبنات إذا اتحدوا یصیرون کبنیان، کلّ جزء منه یمسک بأجزائه الأخری ویتعامل معها وبهذا التعامل والاستمساک یرسخ ویقوی:

رأیت الناس کالبنیان یسمو ... بدحجار تسیّع بالسیاع
فیمسک بعضه بعضا فیقوی ... ویمنع جانبیه من التداعی

(المصدر نفسه: ۱۳۰)

الشاعر یقول الیوم یسود الأوغال والجهلاء علی الناس والعلماء، والناس خاضعون أمامهم وهذه الحالة تدوم حتی ینهض الناس ویتظاهروا ویتعاونوا:

قـد انقلـب الزمـان بنـا فأمسـت بغـاث القـوم تحتقـر النسـورا
فكيـف تـروم فـي الأوطـان عـزا وقـد سـاءت بسـاكنها مصـيرا
ولـم يـک بعضـنا فيهـا لـبعض على ما ناب مـن خطـب ظهيـرا

(المصدر نفسه: ٩٤)

الشاعر يعتقد أن الخبثاء قد سيطروا وتسلطوا على الناس وهم مستسلمون أمـامهم ولا يقومون بأى عمل لإفتراقهم، ونار حميتهم لا تتقد لعدم إتحادهم. ثم يأتى بتشـبيه يظهـر به أهمية الإتحاد بين العناصر والأجزاء المكونة لكلّ شىء بالقول إن اشتعال النـار بحاجـة إلى إتحاد العنصرين ولا تشتعل النار إلا بإتحادهما وهما الأكسيجن والكربون:

قد اسـتحوذت يـا للخسـار علـيكم شياطين إنس صال منكم مريـدها
ومـا اتّقـدت نـار الحميـة مـنكم لفقـد إتحـاد فاسـتطال خمودهـا
ولـولا إتحـاد العنصـرين لمـا غـدا من النار يذكو لـو علمـتم وقودهـا

(المصدر نفسه: ١٥٨)

يشير الشاعر فى البيت الأول إلى الآية القرآنية:

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ﴾(المجادلة/١٩)

لكن الشياطين المذكورة فى البيت تختلف عما جاء فى الآية لأنها من الإنس.

الحرية السياسية

للرصافى خلق متميز وهو تعشقه للحرية وكان هذا الخلق وحده هـو الـذى اخـتط لـه سبيل المجد وفتح له أبواب النبوغ(طبانه، ١٩٤٧: ٤٦).

يعتقد *الرصافى* أن العصر الحديث عصر الحرية تنادت الشـعوب للـدفاع عنهـا، ونشـبت الثورات لإعتلاء رايتها، وكانت الطريق المثلى فى رقىّ الإنسان الحديث، والطريقـة التـى لا يتطوّر الشعب بمعزل عنها؛ ولهذا كان الرصافى شديد التمحس فـى الكـلام علـى الحريـة، شديد الإلحاح فى توجيه الأمة العربيـة إليهـا، وقـد سـيطر الجهـل علـى العقـول واسـتبدّ الطغيان العثمانى بالبلاد وسكانها، وكمّ أفواه أحرارها، وتبعه الاحتلال الغربى فكانت الحالـة حالة كبت وضغط، وكان *الرصافى* يتحرّق لذلک، وينشد للناس أناشيد الحرية، فـلا يتـرک سانحة إلا استفاد منها لتحريک الضمائر، وإيقاظ الكرامة الإنسانية. هو يعتقـد أن لا معنـى

للحرية إذا لم يستقل الناس بأنفسهم ولم يستطيعوا التعبير عن آرائهم(الفاخوری، ۱۹۸۶: ۴۹۲)؛ يقول *الرصافی* فی أهمية الحرية:

إذا لم يَعِشْ حُرّاً بِمَوطنِهِ الفَتَی فَسمِّ الفَتَی مِيتاً ومَوطِنَه قَبرَا

(الرصافی، ۲۰۰۶: ۹۱)

يعتقد *الرصافی* أن تحقق الحرية السياسية فی العراق مرهونة بأمرين وهما:

الأول: رفض الإستبداد العثمانی

الرصافی فی فی عهد العثمانيين عارض *السلطان عبدالحميد* الذی تولی الحكم عام ۱۸۷۶م وساءت أوضاع المجتمع فی عهد حكومته. «هو أول شاعر جاء قومه بما يحبون، وصارحهم بما لا يحبّون. لم يعرف للتقليد أو الخضوع للبيئة معنی لا فی صناعته ولا فی أفكاره. كان من شعره صيحات علمت علی تقويض معالم الاستبداد الحميدی»(بطی، ۱۹۲۳: ۶۷). *الرصافی* يدعو الناس إلی القيام أمام السلطان والدولة ويشجعهم علی رفض الظلم والإستبداد، ويحضّهم علی أخذ حقوقهم قائلاً يجب أن تخاف الحكومة الناس لكن تغيرت الأوضاع، والناس يخافون الحكومة مع أن كل ما يكون للحكومة من الأموال والجنود والقوی و... يتعلق بالناس. وهو يرفض سيادة الأوغال والجهلاء علی العلماء:

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم بالموبقات عميدها

وأعجب من ذا إنهم يرهبونها وأموالها منهم ومنهم جنودها

(الرصافی، ۲۰۰۶: ۱۵۷)

الشاعر يشكو انقيادهم وسكوتهم أمام الحكومة التی تظلمهم وتسلب حقوقهم واصفا حالهم وضعفهم أمامها إثارة لعواطف الناس للنهو ض والقيام:

حتّام نبقی لعبة لحكومة دامت تجرّعنا نقيع الحنظل

تنحوبنا طرق البوار تحيّفا وتسومنا سوء العذاب الأهوال

هذا ونحن مجدّلون تجاههـا كالفأر مرتعدا تجاه الخيطل

(المصدر نفسه: ۲۲۸)

الثانی: مكافحة الإستعمار

فی عام ۱۹۴۱م فرضت بريطانيا إنتدابها علی العراق، بعد أن احتلته قواتها بعد الحرب العالمية الثانية وفصلته عن الدولة العثمانية(الحسنی، ۱۳۸۴: ۲۴۴). *الرصافی* يدعو إلی

استقلال العرب فی الرأی والعقیدة والتفکیر والقول والوسائل الإعلامیة المختلفة وفی الثقافة والتربیة والتعلیم والفن. لذا یعتبر حریة الفکر هی أمّ الحریات وأن الأوطان لن تستقل فی سیاستها ما لم تستقلّ فی تفکیره (شمس آبادی، ١٣٩١: ۶). وهو من الشعراء الذین قاموا أمام الاستعمار الإنجلیزی وکافح الاستعمار وتطرّق إلیه فی شعره وعالجه فی عدة قصائد. من أشهر قصائده فی الحریة هی قصیدة «الحریة فی سیاسة المستعمرین» التی یلجأ فیها الشاعر إلی أسلوب ساخر لیشعر القارئ بالمرارة، ویکشّف لدیه درجة الإحساس بالظلم والجور، ویهرب من الرقابة علی المطبوعات. فالقصیدة سمّ دسّ فی العسل، ظاهرها رحمة وباطنها عذاب(خورشا، ١٣٩٠: ٩٨).

ففی هذه القصیدة عرض الجوانب الوطنیة والسیاسیة بصورة معاکسة، ومخالفة لما ألفه الناس فی معالجة هذه الموضوعات. یخاطب الشاعر قومه ویقول اقبلوا ما قدّر لکم الدهر وارضوا نصیبکم فی الحیاة مهما کان ولا تسعوا لتغییره، وإذا ظُلمتم لا تحزنوا ولا تعبسوا واقبلوه بحفاوة، ولا ترفضوا الإهانة والاحتقار ولا تغضبوا ولا تسخطوا أمام من أهانکم بل اشکروه لأجل عمله، ولا تقطبوا الجبین أمام من ضربکم وصفعکم، ولا تبدوا عن آرائکم ولا تعبّروا عن وجهات نظرکم بل أکدوا کلام الآخرین وأیّدوا آرائهم مهما کانت:

وإذا ظلمتم فاضحکوا	طربا ولا تتظلموا
وإذا أهنتم فاشکروا	وإذا لطمتم فابسموا
إن قیل هذا شهدکم	مرّ، فقولوا: علقم
أو قیل إن نهارکم	لیل، فقولوا مظلم

(الرصافی، ٢٠٠۶م: ۵٨۵)

هو فی شعره یشیر إلی أهداف انکلترا ومقاصدها من الإستعمار وعدم التزامها بالعهود والمواثیق، ویظهر مکرها وخدعها أمام الناس تنبیها لهم وتحریضا لهم علی رفض الاستعمار:

ولیس الإنکلیز بمنقذینا	وإن کتبت لنا منهم عهود
متی شفق القوی علی ضعیف	وکیف یعاهد الخرفان سید
ولکن نحن فی یدهم أساری	وما کتبوه من عهد قیود

(المصدر نفسه: ۵٩٩)

الشاعر ینبّه الناس أمام الغرب ویذکرهم ما أسفر الغرب عن مظلمات ومصیبات وأضرار فی الشرق، ویدعو الناس إلی إهمالهم الغرب وعدم اغترارهم أمام أفعال الغرب وأقوالهم وعهودهم قائلا إننا سننهض أمام الغرب ونقاوم احتلاله فإما نصل إلی هدفنا ونستقلّ وإما نقتل فی سبیل هدفنا:

دع الغرب ینعم فی باله ... وإن لقی الشرق منه الکروب
ولا تسألنه بأفعاله ... فعهد التمدن عهد کذوب
فنحن اغتررنا بأقواله ... ولکننا بعد هذی الحروب
سنأبی علیه أشدّ الإباء ... فإما الفناء وإما البقا

(المصدر نفسه: ۶۳۲)

الإحسان

الشاعر *معروف الرصافی* یشکو من قومه فقدان المساواة بین الناس واختلاف طبقات المجتمع مشیرا إلی أن هذا الاختلاف یزداد کل یوم:

یا قومنا أین المساواة عندکم ... فقد طال عنها فی مواطنکم بحثی
وأین مواثیق الأخوة إننی ... أری حبلها فی کلّ یوم إلی النکث

(المصدر نفسه: ۵۹۳)

کثیرا ما عرض *الرصافی* للبؤس والبؤساء، والفقر والفقراء، حتی لقّب بـ «شاعر البؤساء». فقال فی حدیث له «کانت مشاهد البؤس من أشد الدواعی عندی إلی نظم الشعر». ولمشاهد البؤس عنده أوصاف، والأوصاف مبثوثة فی شتّی قصائده وهی أبدا واقعیة الصورة، قاتمها، ینشر الحزن والألم فیها انتشارا شدیدا، ویحاول الشاعر أن یجعلها فی إطار مؤثر. وکثیرا ما نراه فی القصائد یتوجه إلی الله طالبا الرحمة للبائسین، ویتوجه إلی الأغنیاء طالبا الشفقة ومدّ ید المعونة إلی المعوزین(الفاخوری، ۱۹۸۴: ۴۹۴):

أیها الأغنیاء کم ظلمت ... نعم الله ما إن رحمتم
سهر البائسون جوعا ونمتم ... بهناء من بعد ما قد طعمتم
من طعام منوّع وشراب
کم بذلتم أموالکم فی الملاهی ... ورکبتم بها متون السفاه

وبخلـــتم منهـــا بحـــق الإلـــه أيهـا الموسـرون بعـض انتبـاه

(الرصافی، ٢٠٠٦: ١٥٥)

الشاعر فی هذه الأبیات یخاطب الأغنیاء والموسرین ویشکو ظلمهم وعدم اهتمامهم بالفقراء والإحسان إلیهم، ویوعدهم بالخسران والهلاک. *الرصافی* کان کثیر الاهتمام بالإحسان ویرفع شأن المحسنین تشجیعا للناس، ویعتقد أن للمحسن مقاما وشأنا لا نظیر له قائلا إن کان بین الناس من یستحق العبادة هو الانسان المحسن، هو یعتبر الإحسان أفضل الأعمال وأحلاها:

لوکنـت أعبـد فانیـا فـی ذی الـدنا لعبـدت مـن دون الإلـه المحسـنا

وجعلـت قلبـی مسـجدا لتعبّـدی سـرّا وفهـت لـه بشـکری معلنـا

فی مجتنی غرس الخلیقـة لـم أجـد غرسا سوی الإحسان حلو المجتنی

(المصدر نفسه: ٣٠٧)

الجهاد

الشاعر *معروف الرصافی* بعد خلع *السلطان عبدالحمید* عام ١٩٠٩صار من مدافعی الحکومة العثمانیة ضدّ الغرب، ویدعو أبناء أمته إلی الذود عن الحکم العثمانی ودعا إلی مقارعة أعدائه(المقدسی، ١٩٨٨: ٦٨):

ألا انهض وشمر أیها الشـرق للحـرب وقبّل غرار السیف واسل هو ی الکتـب

ولا تغتـرر أن قیـل عصـر تمـدن فإن الـذی قـالوه مـن أکـذب الکـذب

ألسـت تـراهم بـین مصـر وتـونس أباحوا حمی الإسـلام بالقتـل والنهـب

(الرصافی، ٢٠٠٦: ٦٣٢)

وفی الحرب العالمیة الأولی وقف کثیر من الشعراء العرب مع الدولة العثمانیة فی قتالها ضد الحلفاء عندما نشأت تلک الحرب مثارین بعاطفتهم الدینیة قبل کلّ شیء سواها، وقد انعکست هذه المؤازرة فی القصائد الکثیرة التی نظمت آنئذ، ومن هؤلاء الشعراء *معروف الرصافی* الذی یمکن اعتباره من شعراء المجتمع الاسلامی(الدقاق، ١٩٨٥: ٤٢):

یـا قـوم إن العـدا هـاجموا الوطنـا فانضوا الصوارم واحملوا الأهل والسـکنا

واسـتنفروا لعـدوالله کـلّ فتـی ممن نـأی فـی أقاصـی أرضـکم ودنـا

واستنهضوا مـن بنـی الإسـلام قاطبـة مـن يسـكن البـدو والأريـاف والمـدنا
واستقتلوا فی سبيل الذود عـن وطـن بـــه تقيمـــون ديـــن الله والسّـــننا
واستنكفوا فی الـوغی أن تلبسـوا أبـدا عــار الهزيمــة حتــی تلبســوا الكفنــا

(الرصافی، ۲۰۰۶: ۶۳۵)

نتيجة البحث

الرصافی افترض مهمة علـی عاتقـه فـی شـعره لإنقـاذ الشـعب وإيصـاله إلـی الكمـال والسعادة، وهی دعوة الشعب إلی ما يصلح المجتمع ويغير الأوضاع ويحلّ المشاكل. هو فی شعره يدعو إلی:

۱- كسب العلم: لأن يسير بالمجتمع نحو درجات الكمال ويرقی بالشعوب فهو المصباح المنير الذی يبدد الظلام ويقود الناس إلی التحرر من نير العبودية.

۲- حرية النساء: *الرصافی* يطالب للمرأة الشرقية العمل فـی المجتمـع وعـدم انفصـالها عنه، ورفع الحجاب، وكسب العلم، والحرية فی الزواج، والمساواة بينها وبين الرجل.

۳- كسب المجد: لأن الآمال لا تحقق إلا بالعمـل الجـادّ ولا تكتسـب المعـالی إلا بـه، والمجد هو ما يبقی دائما ولا يفنی.

۴- التعاون والاتحاد: يعتقد *الرصافی* أن سعادة الـوطن لا تتـوفر إلا بالاتحـاد والتعـاون والتظاهر.

۵- الحرية السياسية: فی رأی الشاعر الاستعباد مهمـا كـان مخـالف لطبيعـة الانسـان، وعصرنا هذا عصر الحرية وينـدد الاسـتعمار، ولهـذا فـی رأی *الرصـافی* لا تتحقـق الحريـة السياسية فی العراق إلا برفض الإستبداد العثمانی ومكافحة الإستعمار.

۶- الاحسان: هو يدعو الأغنياء والموسرين إلی الاحسان إزالة للفقر والحرمان، *الرصـافی* كثير ما عرض لمشاهد البؤس والفقر حتی لقب بـ"شاعر البؤساء".

۷- الجهاد: *الرصافی* عنی عناية خاصة بالوطن وقضاياه الداخلية والخارجية، وكثيـرا مـا دعا الناس إلی الجهاد فی سبيل الوطن أمام الأعداء.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

بطی، رفائیل. ١٩٢٣م، **الأدب العصری فی العراق العربی**، مصر: مطبعة سلفية.

الجيوسی، سلمی الخضـراء. ١٩٩٦م، **الإتجاهات والحركات فـی الشـعر العربـی المعاصـر**، ترجمـة عبدالواحد لؤلؤة، منشورات اتحاد كتاب وأدباء الامارات.

الرصافی، معروف. ٢٠٠٦م، **الأعمال الشعرية الكاملة**، بيروت: دار العودة.

الركابی، جودت. ٢٠٠١م، **الأدب العربی من الإنحدار إلی الإزدهار**، الطبعـة الثانيـة، بيـروت: دار الفكـر المعاصر.

طبانة، بدوی. ١٩٨٦م، **التيارات المعاصرة فی النقد الأدبی**، الطبعة الثالثة، الرياض: دار المريخ.

الفاخوری، حنا. ١٩٨٦م، **الجامع فی تاريخ الأدب العربی(الأدب الحديث)**، بيروت: دار الجيل.

مريدن، عزيزة. ١٩٨١م، **حركات الشعر فی العصر الحديث**، دمشق: جامعة دمشق.

المقدسی، أنيس. ١٩٩٨م، **الإتجاهات الأدبية فی العالم العربی الحـديث**، الطبعة الثامنـة، بيـروت: دار العلم للملايين.

يوسف، عزالدين. ١٩٦٠م، **الشعر العراقی الحديث إثر التيارات السياسية والإجتماعية فيـه**، بغـداد: وزارة المعارف.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی